﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـشُّـروع في تَفصيلِ بَعضِ أحـكـامِ المُـلـكِ وآثارِ القُدرةِ

لمّا افتُتحت السّورة الكريمة بتعظيم الله تعالى وإثباتِ مُلكه المُطلق وقدرته الشّاملة؛ جاءت الآية التّالية لها تُبيِّن مظهرًا من أعظم مظاهر هذا المُلك وتلك القدرة، وهو خلْقُ الموت والحياة، وهُما قطبا الوجودِ الإنسانيِّ، لا يملك أمرَهما إلّا مَن له تمامُ السُّلطان، فدلَّ خَلقُهما على سَعة القدرة، وأبان اقترانُهما على الحكمةِ، فالآية شُروعٌ في تَفصيلِ تجلّيات المُلك الإلهي وآثار القدرة الرَّبانيَّة، وبَيانِ ابتنائِهما على قوانين الحِكْمةِ والمَصالحِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: من الفعلِ (بلى يَبْلي)، ومنه: الابتلاء، وجذره اللُّغوي: (بلي)، وأصل معناه: يدلُّ على الامتحان، وهو الاختبار[2]، يُقالُ: "أبلاهُ السَّفرُ، وبَلَوْتُهُ: اختبرتُهُ، كأنّي أخلقتُهُ من كثرة اختباري له، وسُمّي الغمُّ بلاءً؛ من حيثُ إنَّهُ يُبْلي الجسْم"[3]، و"البلاء يكون حسنًا، ويكون سيِّئًا، وأصله: المحنة، والله تعالى يبتلي عبدَهُ بالصُّنع الجميل؛ ليمتحن شُكْرَه، ويبلوهُ بالبلوى التي يكرَهُها؛ ليمتحن صبرَه"[4]، و"ابتلاه الله: اختبره، كأنَّما اختبر صبرَهُ وتحمُّلَه، ويقال أيضًا: بَلَوْته: امتحنته، ومن هذا: البلاءُ؛ الاختبارُ والمحنة والغمُّ"[5]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلوي).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلو).
(4) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (بلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلو/ بلى).

"والابتلاء: افتعالٌ مِن البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمُبالغة، ومعنى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ هنا: ليختبركُم، ويمتَحِنَكُم في حال الحياةِ، ويُجازيكُم بعدَ المماتِ"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان سعةِ حِكْمَة الله تعالى وعِزَّته ومغفرته بعد بيانِ مُلْكِه وعظيمِ قُدْرَته

بَيَّن سُبحانه سعةَ حِكْمَتِه بعد أن بَيَّن عظيمَ قدرتِه، فذَكَرَ أنَّه خلق الموتَ والحياة، لا على سبيلِ العبث، بل لحِكمة بالغةٍ وغاية جليلة، وهي ابتلاءُ العبادِ واختبارُهم في سلوكهم وأعمالِهم؛ ليَنْكَشِفَ المُخْلِص من المُدَّعي، والمطيعُ من العاصي، والمُحسن الذي يوافق عملُه شرعَ الله تعالى، من المُسيء الذي اتَّبع هواه، فالموت مَعْبَرٌ إلى دار الجزاء، والحياة ميدانٌ للعمل والابتلاء، يجازيكم على أعمالِكم، وهو الغالبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المَنيعُ الجَنابِ، القاهرُ لجَميعِ المخلوقاتِ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَقيهم عُقوبتَها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصل هذه الآية عَمّا قبلها:

بيان بعض مظاهر المُلك الإلهيّ وتجلّيات القدرة الرَّبّانيّة

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّه لمّا ذَكَرَ أنَّ بيده المُلْكَ، وهو على كلِّ شيء قدير؛ قيل: ما الدَّليل على ذلك؟ أو ما هي آثارُ ذلك؟ فجاء الجوابُ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ ليكون ذلك داعيًا إلى العمل في الحياة والحساب بعد الموت، فالآية تمهيدٌ لبيان بعض مظاهر المُلك الإلهيِّ وتجلّيات القدرة الرَّبّانيَّة، مع الإشارة إلى أنَّ هذا المُلْكَ مُؤسَّس على نظام مُحكم من الحكمة والمصلحة، مُتَّجه نحوَ غاية سامية، وهي ابتلاءُ العباد وتمييز المُحْسِن من المُسيء،

(1) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 456، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 8.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 207، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 176، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 875.

ومن ثَمَّ الجزاء في الدّار الآخرة، فجاء التَّعبير القرآنيُّ أبلغَ ما يكون في الإرشادِ إلى تلك المعاني العظيمَةِ[1].

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم والشَّهادة لله بالتَّعالي

فائدة التَّعبير بالاسم الموصول تكمُنُ في تعدُّد المعنى، و﴿ٱلَّذِى﴾ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ يجوزُ أن يكون مرفوعًا على أنَّه بدلٌ من الموصول السّابق: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ داخلٌ معه في حكم الشَّهادة بتعاليه تَعالى، ويجوزُ أن يكون منصوبًا على المَدْحِ، أو أن يكون خبرًا لمُبتدأ محذوف[2]، وهذا على الاستئنافِ أحسنُ، كأنَّه قيل: من هو الذي بيده الملك، وهو على كُلِّ شيء قدير؟ قيل: هو الذي خلق الموت والحياة، أو أجيب بأنَّه هو الَّذي خلق الموت والحياة. ومن فوائد التَّعبير بالاسم الموصول أيضًا: التَّعظيم والتَّفخيم، كأنَّه قال: ألا تعرفون من هذا؟ هو الذي خلق الموتَ والحياةَ.

بلاغة التَّعبير بالخلق:

كونُ الخلقِ مظهرًا جليلًا من مظاهر المُلك التّامِّ والتَّصرُّف المُطلق

الخلق من دلائل الوحدانيَّة والألوهيَّة، ولذلك يكثُر استخدامه في الدَّلالة على وحدانيَّته أو ألوهيَّته، كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور: 35 - 36]، وقال سُبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فالخَلْقُ دليلٌ على الأُلوهيَّة والوحدانيَّة، وهو دليلٌ جامع لِصفَتَي القدرةِ والعلم معًا، ومظهرٌ جليل من مظاهر المُلك التّامِّ والتَّصرُّف المُطلق[3].

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

بيانُ تَحَقُّق هذا الفعل فيما سَبَقَ وتيقُّنه فيما يُستقبل

جاء التَّعبير عن فعل الخَلْقِ ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لِبيان تَحَقُّق هذا الفعلِ فيما سَبَقَ، وتيقُّنه

(1) الحصني، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 282، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2.
(2) المظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 17، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 12.

فيما يُستقبل قياسًا على ما سبَقَ، أي: خلق الموت والحياة للأحياء وللأموات، فالمتحقَّقُ في الأحياء والأموات الذين مَضَوا، والمتيقَّنُ في الذين سيأتونَ بعدُ.

سِرُّ التَّعبير بالخلق في مقام ذِكْرِ الموتِ والحياة:

التَّعبير بالخلق يَدُلُّ على الفناءِ وعلى النِّهاية

في التَّعبير عن الموتِ والحياة بالخَلْقِ دلالَةٌ على أنَّ كلَّ مخلوقٍ له فناء، وعلى أنَّ الحياة والموت الذي نعيشُهُما سيفنيانِ؛ لأنَّ كُلَّ مخلوقٍ يَفْنى، فالحياةُ التي نعيشها في الدُّنيا سَتَنْتَهي بالموتِ، والموتُ سَيَنْتَهي يومَ القيامة بأن يُذبح على صورةِ كَبْشٍ[1]، فكان التَّعبيرُ بالخلق دالًّا على الفناء[2] وعلى النِّهايةِ.

دلالَةُ ذِكْرِ الخَلْقِ بعدَ الملكِ والقُدرة:

الإشـــارة إلى تعلُّق الخَلْقِ بِتَمامِ المُلك وطلاقةِ القُدْرَةِ

من بلاغةِ مجيء الخَلْقِ بعدَ المُلْكِ والقُدْرَةِ الواردَيْنِ، في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، أنَّ الخلقَ تقديرٌ وإيجادٌ، يُقدِّر الشَّيء، فيوجِدُه على حسَبِ ما قَدَّره، ولا يُمْكِنُ أن يَحْدُثَ منهُ تقديرٌ وإيجادٌ إلّا إذا كان مالكًا للمُلْكِ، قديرًا على أعلى درجات القُدرةِ، فيكون جامعًا بين تمام المُلك وطلاقة القدرة[3].

دلالَةُ الاقْتِصارِ على ذِكْرِ خَلْقِ الموتِ والحياةِ:

كونُهُما مظهرَيْنِ بارزَيْنِ لتَعلُّق القُدرة الإلهيَّة فيما يتَّصل بالذَّوات والأعراض

خَصَّ النَّظم الكريم ذِكرَ الموتِ والحياة من بَيْنِ سائر المخلوقات؛ لأنَّهما أعظمُ ما يطرأ على جِنْسِ الحيوان، وهو أبدَعُ المخلوقات الأرضيَّة، والإنسانُ واحدٌ من هذا الجنس، وهو المُخاطَب بالأوامرِ

(1) روى البخاري في صحيحه، برقم: (4730) ومسلم في صحيحه، برقم: (2849) - واللفظ له - أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يُجاءُ بِالْمَوْتِ يَومَ القيامَةِ، كَأَنَّهُ كَبشٌ أَمْلَحُ، فَيوقَفُ بَينَ الجَنَّةِ والنَّارِ، فَيُقالُ: يا أهلَ الجَنَّةِ: هَل تَعْرِفونَ هَذا؟ فَيَشْرَئِبّونَ، ويَنْظُرونَ، ويَقولونَ: نَعَم، هَذا المَوْتُ، ويُقالُ: يا أهْلَ النّارِ: هَلْ تَعْرِفونَ هَذا؟ فَيَشْرَئِبّونَ، ويَنْظُرونَ، ويَقولونَ: نَعَمْ، هَذا المَوْتُ، قالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يُقالُ: يا أهْلَ الجَنَّةِ خُلودٌ، فَلا مَوْتَ، ويا أهْلَ النّارِ خُلودٌ، فَلا مَوْتَ».

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 257.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 257، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 12.

الإلهيَّة والمطالبُ بالأعمال، فالموت تَصرُّف إلهيٌّ في موجود يُعدُّ للزَّوال، والحياة تصرُّف في معدوم يُهيَّأ للوجود، ثُمَّ يُمنح الحياةَ؛ ليَكْتَمِلَ وجودُه الخاصُّ به باعتبارِهِ نوعًا مميَّزًا، ولذا فإنَّ ذِكْرَ خلق الموت والحياة ليس مُجرَّد تفصيلٍ لمَعْنى الملك، بل هو وصفٌ مستقلٌّ يَدُلُّ بنفسه على التَّصرُّف المطلق لله تعالى في الموجودات والمعدومات، ووقَعَ الاقتصارُ على ذِكْرِ هاتين الحالَيْنِ - الموتِ والحياة - لأنَّهما مَظْهَران بارزان لتعلُّق القُدرة الإلهيَّة في ما يتصل بالذَّوات والأعراضِ، فالموتُ والحياة عَرَضانِ، والإنسان مَحَلٌّ لهما، فإذا ذُكِرَ خَلْقُ العَرَضِ - الموت والحياة - تضمَّن ذلك - بدلالة العقلِ والاقتضاء - أنَّ هُناك مخلوقًا تقومُ بهِ هذهِ الأحوالُ[1].

بلاغة الإدْماجِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم عن الموت والحياة؛ للدَّلالة على القُدرة وعلى البعثِ والنُّشور والحساب؛ لأنَّه لا يكون حياةٌ إلّا وفيها عملٌ، ولا يكون موتٌ محضٌ بلا حسابٍ، فلا بُدَّ وأن توجد حياةٌ يكون فيها الحسابُ والجزاء[2]، فجَمَعَ التَّعبيرُ بينَ بيانِ كمال القُدرة في إيجاد الموت والحياة، والتَّنبيهِ إلى الغايةِ مِن خَلْقِهما، وهي الابتلاءُ المُؤَدّي إلى الحساب والجزاء، فكان اللَّفظُ الواحد حاويًا للسَّبب والمآلِ في آنٍ واحدٍ.

الجمعُ بين بيان كمالِ القُدرة في إيجاد الموت والحياة، والتَّنبيه إلى الغاية من خلقِهما

سِرُّ تقديم الموت على الحياةِ في الذِّكْرِ:

قدَّم النَّظمُ الكريم الموتَ على الحياةِ لحِكَم بليغة، منها: أنَّه هو المخلوق أوَّلًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فإنَّ الموتَ في عالم الملك ذاتيٌّ، والحياةَ عَرَضيَّة، فالأشياء كانت مِن عناصرَ لا حياة فيها، كالنُّطفة والتُّراب، ثُمَّ

تقديمُ ذِكْرِ الموتِ أدعى لإثارة الوجَلِ، وأقوى في تحريكِ الهمَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 12.
(2) السّيرافي، التَّقريب في التفسير: 4/ 414.

طرأت عليها الحياة بعدُ، فكان الموتُ أسبقَ مِن حيثُ الخَلْقُ[1]. كما أنَّ ذِكْرَ الموت أوَّلًا أدعى لإثارة الوجَلِ، وأقوى في تَحْريكِ الهمَّة؛ إذْ هو أقرَبُ إلى قَهْرِ النَّفس ورَدْعِها، ومَن جَعَلَ الموتَ نُصب عينَيْهِ؛ كان أدْعى إلى إخلاصِ العمل وتَحَرّي الصَّواب، وهو الغرض الذي سيق من أجلِهِ الخِطاب، فجاء التَّقديم في غاية البلاغةِ والعِظَة[2].

التَّعبير بـ (أل) في ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾:

وفـرةُ المَعـاني وكثرَتُها بتَعَدُّد معاني الحُروفِ

التَّعْريفُ في لفظَي ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ[3]، أو الاستغراق، فإن كان للجِنْسِ؛ فهو إخبارٌ عن استواءِ الجميع في جنسِ الموتِ والحياة، وإن كان للاستغراق؛ دلَّت على أنَّه خَلَقَ الموت والحياة في كُلِّ حيٍّ ومَيِّت، فكأنَّها تستغرِقُ كُلَّ الأحياء والأموات، بدلالة اللُّزوم؛ فإذا خَلَق كُلَّ ميِّت وكلَّ حي، وخلق الحياةَ في كُلِّ حيٍّ، وخلق الموتَ في كُلِّ ميِّت؛ فيكون (أل) للاستغراقِ. وجائزٌ أيضًا أن تكونَ للعهديَّة، كأنَّ المعنى: خلَقَ الحياةَ التي تعرفونها، والموتَ الذي تعرفونه، والحياةَ التي يعيشها الإنسان، والموتَ الذي بعده، وهذا دليلٌ على أنَّه ستكونُ هناك حياةٌ أخرى بعدَ ذلك، فلمّا خلق المعهودَ عِندَكُم، وأخبركم بالموجودِ المُشاهَد المرئيِّ؛ وجَبَ عليكُم أن تُسَلِّموا بالغيب الذي لا تعرفونَهُ، ولا تَطَّلعون عليه.

بَديع الطِّباق بذِكْرِ ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾:

إبـــرازُ تـمـامِ التَّصرُّف الإلهيِّ في الخَلْقِ إيجادًا وإعْدامًا

ذُكِرَ ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ على وجه الخصوص؛ لِما فيهما من دلالةٍ عظيمةٍ على قدرة الخالق، وعِبرةٍ بالغة في تعاقُبِ حالَيْن متضادَّين على مخلوقٍ واحد، فالموتُ والحياةُ حالانِ تَعْرِضان لجِنْسِ الحَيوان، يَعْكِسُ تقابلُهُما تمامَ التَّصرُّف الإلهيِّ، فالموتُ يُهيّئ الكائن للزَّوال

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 575.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 206، والطِّيبي، فتوح الغيب: 15/ 534، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 2، 3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 13.

والانقطاع، بينَما تُهيِّئه الحياةُ للبقاءِ المُؤقَّت والعملِ والتَّكليف، وفي هذا التَّعاقب المُتناوب على المخلوق تَجَلٍّ بديعٌ لكمالِ الصُّنع والإتقانِ[1].

بلاغة التَّعبير باللّام في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾:

بيانُ الحِكمة العظيمةِ في خَلْقِ الموتِ والحياةِ

اللّام في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ هي لامُ التَّعليل؛ تُبيِّن أنَّ مِن الحِكم العظيمةِ لِخَلْقِ الموت والحياة ابتلاءَ الإنسانِ، أي: اختبارَهُ في مدى إحسانهِ العمَلَ، وهذا التَّعليل لا يَدُلُّ على انحصارِ الغاية فيه وحدَهُ، بَل ذُكِرَ ما يُناسب مقام التَّذكير والتَّكليف. وقد عبَّر النَّظم الكريم عن الغايةِ بـ ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مدار الابتلاء على جودة العمل وإخلاصه وصوابه، ومَن فَقِهَ هذا المعنى؛ أدْرَكَ أنَّ الغاية من وُجودِه هي بلوغ مرتبة الإحسان، فيسعى لبلوغها بما يقرِّبه من رضا ربِّه، ويجتهد في تحرّي العمل الصّالح على وجهه الكامل؛ لأنَّ الفلاح في ذلك هو النَّجاح الحقيقيُّ في هذا الامتحان الرَّبّانيِّ[2].

بلاغَةُ الإدماجِ بِذِكرِ الابتلاءِ في هذا التَّعليل الكريم:

خُلِقَت الحياةُ ليعمر النّاسُ فيها بالصّالحات، وخُلِقَ الموتُ تهيئةً لهم لِلدّارِ الآخرة

في تعليل الخَلْقِ بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بلاغةُ الإدماج؛ إذ تَضَمَّن النَّظم الكريم - إلى جانب بيانِ الغايةِ مِن خَلْقِ الموت والحياة - تقريرًا ضمنيًّا لوحدانيَّة الله تعالى ودلالةً باهرةً على حِكْمَتِه، وذلك مِن خلالِ استِدعاءِ النَّظر في النَّفس الإنسانيَّة ذاتِها، التي تولَد، فتعيش، ثُمَّ تموت، وتنتقل إلى يوم الجزاء، فكان المعنى المُدمج: أنَّ الله سُبحانَهُ خلقَ الحياة؛ ليُعمِّر النّاسُ فيها بالصّالحات، وخلقَ الموت؛ ليُهيِّئهم لِلقاءِ الآخرة؛ إذ توزَنُ الأعمال، وتُجْزى النُّفوس، فيكون المعنى: أنَّه خلَقَ الموتَ والحياةَ؛ ليكونَ منكم أحياءٌ يَعمَلونَ الصّالحاتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ أمواتًا يَخلُصونَ إلى يومِ الجزاءِ، فيُجْزَونَ على أعمالِهم بما يُناسِبُها، وهو استدلالٌ بليغ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 12.
(2) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 2/ 171، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 13.

الوحدانيَّة من داخلِ النَّفس البشريَّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات: 21]؛ إذْ نِظامُ الابتلاءِ والجزاء لا يكون إلّا عن تدبير إلهٍ واحدٍ حكيمٍ[1].

سِرُّ التَّعبير بالبلاء دون غيرهِ مِنَ الألفاظ:

إظهار ما عند النّاس من العملِ بالاختبار

معنى قولِهِ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أن يُعامِلَكُم - وهو أعلَمُ بكُم مِن أنفُسِكُم - مُعاملةَ مَن يَختَبِرُ غيرَهُ؛ ليُظهِرَ ما عندَهُ مِنَ العمَلِ بالاختبار[2]، ولذلك قال: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾، فالبَلاءُ مِن جهة العملِ، وليس من جهة أُخرى، والبلاء اختبارٌ فيهِ بليَّة، ولذلك قُدِّم الموتُ على الحياةِ؛ لأنَّ الابتلاء أو البَليَّةَ في الموتِ أظهرُ وأوضَحُ منها في الحياةِ، فكأنَّه قال: إنَّ الموت هو الذي يَدْعوكُم إلى التَّسابق في العمَلِ؛ ليكون كُلُّ واحدٍ منكم أحسَنَ عملًا مِن غيرهِ.

بلاغة التَّعبير بالفعل مُضارعًا:

الدَّلالة على أنَّ هذا الوصف موجودٌ في كُلِّ حَيٍّ يموتُ يتجدَّد له في حياتِهِ

في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ جاء التَّعبير بالفعل المُضارع الذي يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرارِ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصف موجودٌ في كُلِّ حَيٍّ يموت، وفي كُلِّ مَيِّت يحيا، فإنَّ ذلك دائمٌ مُتجدِّد، فإذا مات إنسانٌ؛ تجدَّد الابتلاءُ في غيرهِ وهكذا، ويدومُ في حياته حتَّى يموتَ هوَ، ولذلك عبَّر النَّظم الجليل بالفعل المضارع دون الماضي.

بلاغة الخطاب في قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

شمولُ الخِطابِ للمُؤْمِنِ والكافِرِ

افتُتِحَت السّورة بالحديثِ عن الله ﷻ وصفاته في المُلْكِ والقدرة وتمام الخلق، ولمّا كان كُلُّ ذلك يُراد به مُخاطبة الكفّار، والاستدلالُ بكلِّ ما تقدَّم، وما سيأتي على استحقاقه تعالى للألوهيَّة؛ كان الخطاب للكُفّار أو الخطاب لِكُلِّ من يصلح له الخطاب، فيشمَلُ الكافِرَ والمُؤْمِنَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 13.

(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 22/ 37، والحصني، المقتطف من عيون التَّفاسير: 5/ 282، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228.

ويدلُّ على أنَّ الخطاب يشمَلُ الكُفّار أيضًا ختْمُ الآية بذِكْرِ اسمه تعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ لِما فيه من الإشارة إلى الجزاءِ والعقوبة؛ إذ يُفهم أنَّ الابتلاءَ المقصودَ في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ يتضَمَّن الامتحانَ الذي يترَتَّب عليه الحسابُ والمجازاة، وهو ما يناسب حالَ المشركين الذين جحدوا حقَّ الله تعالى في الألوهيَّة، فشَمِلَهُم ضميرُ الخِطاب في الآيَةِ[1].

موقِعُ قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وعلَّةُ فصله عمّا قبلَهُ:

هذه الجُملة تحتَمِلُ أوجهًا عدَّةً في الإعرابِ والمَعْنى: فتحتَمِلُ أن تكونَ سادَّة مَسَدَّ المفعولِ الثّاني فيه ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ لتَضمُّنه معنى العِلْم، فإنَّ الذي يبلو يعلم نتيجَةَ الابتلاء، أو يُظْهِر للمُبتلى نتيجةَ الابتلاءِ، فلمّا تضمَّن الفعلُ معنى العلم؛ نصبَ مفعولين[2]، ويحتَمِلُ أن تكون هي المفعولَ بنَفْسِه، وتقدير الكلام: ليبلوَكُم، فيعلَم الذين يُقال في حَقِّهم: أيُّهم أحسَنُ عَمَلًا، مثل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم: 69]، أي: لنَنْزِعَنَّ من كُلِّ شيعة الذين، يُقال فيهم: أيُّهم أشدُّ على الرَّحمن عتيًّا.

أثر الإعراب في تعدُّد المعاني وإبرازها

وجائزٌ أن تكونَ الجملةُ جوابًا عَن سؤالِ سائلٍ: أيُّكم أحسن عَمَلًا؟ أي: ليبلوَكُم؛ ليَعْلَم الجواب عن كُلِّ سائلٍ سألَ: أيُّكم أحسن عملًا؟ أو أن تكون جُملة: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مُستأنفةً، على أنَّ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ على أصلِها، فتكون ناصبة لِمفعول واحد، ويكون الكلام مُنتهيًا عند قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ثُمَّ استأنف كلامًا جديدًا للتَّحضيض والحَثِّ على حُسْنِ العمل، فقال: إذا كان فَعَلَ ذلكَ ليبلوَكُم؛ فأيُّكم سيكون مِن القوم أحسَن عملًا؟ وهذا يجعل الوقفَ على قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، والبدءَ بقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾ مُناسِبًا للمعنى[3].

الفصل بالاستفهام يوحي بأهمّيَّة ما بعده، على سبيل التَّحفيز والتَّحريض

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 15.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 228، والمظهري، التَّفسير المظهري: 10/ 20، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 146.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 15.

بلاغة التَّعبير بـ (أي) في ﴿أَيُّكُمْ﴾:

تنويع الدَّلالات وتكثير المعاني من مميِّزات النَّظم القرآنيّ

(أي) مِن أعمِّ الكَلِماتِ في اللُّغة العربيَّة وأبْهَمِها، وهي تأتي موصولَةً واستفهاميَّة وشرطيَّة، وهي في الاستفهاميَّة والشَّرطيَّة أكثرُ وأوضح، وهذا مِن بلاغة القرآن الكريم، أن يَأْتيَ بالكلمات التي تحتَمِلُ معانيَ عدَّة، كأنَّه قال: ليبلوَكُم؛ فتَظْهَر نتيجةُ: أيُّكم أحسن عملًا، فيكون استفهامًا، أو ليبلوكم أيُّكم أحسن عملًا؛ فيدخل الجنَّة، فتكون شرطًا، وأيُّكم أسوأ عَمَلًا؛ فيدخل النّار، فتكون شرطًا كذلك، كقوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النَّمل: 38]، وأمّا في الشَّرط؛ فمثل قولكَ: أيُّكم يسبقْ؛ يفُزْ، والتَّعبير بـ (أيّ) هاهنا؛ للدَّلالة على العموم، فإذا أُضيفَت إلى المعرفة - وهي الكاف (أيُّكم) - صار المعنى: أيُّ واحد منكم، فأفادت العمومَ بلا نزاعٍ، أي: كُلُّ مَن يصحُّ منه خطابهُ، وإن جاز أن تكون لخصوص الكُفّار، باعتبار التَّخويف بتقديم الموتِ على الحياة، إلّا أنَّهُ تخويفٌ لأهل الإيمانِ أيضًا، حتَّى يظَلّوا على ما هُم عليهِ مِنَ الإيمان، وحتَّى يرتفعوا في سياق الإيمان إلى الدَّرجات العُلا مِنهُ.

فائدة التَّعبير بأفعل التَّفضيل:

دعوة النّاس إلى الدَّرجات العلا في الأفعالِ، وعدَم ركونِ المؤمن إلى أدنى الحالاتِ

قولُه تعالى: ﴿أَحْسَنُ﴾ اسمُ تَفضيلٍ، أي: أحسَنُ عمَلًا مِن غيرِه، فالأعمالُ الحَسَنةُ مُتفاوِتةٌ في الحُسنِ إلى أدْناها، فأمّا الأعمالُ السَّيِّئةُ؛ فإنَّها مَفهومةٌ بدَلالةِ الفحْوى؛ لأنَّ البَلوى في أحسَنِ الأعمالِ، تَقْتضي البَلْوى في السَّيِّئاتِ بالأولى؛ لأنَّ إحصاءَها والإحاطةَ بها أولى في الجزاءِ؛ لِما يَترتَّبُ عليها مِن الاجتراءِ على الشّارعِ، ومِن الفسادِ في النَّفْسِ، وفي نِظامِ العالَمِ، وذلك أولى بالعِقابِ عليه، ففي قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجازٌ[1]، وفي هذه الصّيغة دعوة النّاس إلى الدَّرجات العلا في الأفعال، وعدم رُكونِ المؤمن إلى أدنى الحالاتِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 29/ 15، والعثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 268.

سِرُّ تخصيص الابتلاءِ والمُفاضلَةِ فيما ابْتُلوا فيهِ على الأعمال الحَسَنة:

التَّنبيه البليغُ إلى ما يَنْبَغي أن يكونَ عليهِ حالُ النّاس من التَّرقّي في درجاتِ الإحسان

ورَدَتْ صيغة التَّفضيل ﴿أَحْسَنُ﴾ مع أنَّ الابتلاء يشمَلُ جميع العبادِ بحسَبِ أعمالِهم حَسَنِها وقَبيحِها، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المقصود الأساسَ من هذا الابتلاء هو إبراز درجة الإحسان في أعمال المحسنين، وفي هذا تحفيزٌ للمؤمنين على بلوغِ مراتِب الإحسان، لا الاكتفاء بالحدِّ الأدنى من الطّاعة، ودعوةٌ للتَّرقّي في مراتب مدارج العلوم ومدارج الطّاعات، والتَّنفير من الوقوع في نقائص الأعمال[1].

فتخصيص الابتلاء بالمفاضلة بين الأعمال الحسنةِ دونَ غيرها، تنبيهٌ بليغ إلى ما ينبغي أن يكون عليه حالُ النّاس، وهو أن يوجِّهوا هَمَّهُم إلى مجالِ الإحسان وحدَهُ، والتَّنافس بينهم في هذا المجال[2].

بلاغة التَّعبير بالتَّمييز المُحوَّل:

الدَّلالة على أنَّ أهمَّ شيء بالنِّسبة للإنسان عَمَلُه

أصْلُ الكلام: أيُّكُم عمَلُهُ أحسَنُ من غيره، وبلاغةُ التَّعبير بهِ هاهنا: الدَّلالة على أنَّ أهمَّ شيء بالنِّسبة للإنسان عَمَلُه، فلا يُنْظَرُ إلى شَكْلِهِ من طولٍ أو قِصَرٍ، وبياضٍ أو سوادٍ، ولا إلى سائر ألوانِ جَسَدِهِ وأشكالِهِ وأطوارِهِ، وإنَّما يُنْظَرُ إلى عمله الذي يشمل كُلَّ شُعَبِ الإيمان، بدءًا من التَّصديقِ القلبيِّ بما يجبُ التَّصديقُ به شرعًا، وانتهاءً بالطّاعات والأخلاق.

بيانُ أثَرِ العمَلِ عَلى العامِلِ

ومن فوائد التَّعبير بالتَّمييز في قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، بدَلَ: أيُّكم عَملُه أحسنُ: أنَّ في إسناد الحُسْنِ إلى المُخاطَب المخلوقِ - دونَ إسناد الحُسْنِ إلى العمل - الدَّلالةَ على أنَّ مَن كان عملُه أحسَنَ؛ كان هو أحسَنَ، ولو كان أسوأ النّاس مَنظرًا وأبشعهم شَكْلًا وصورةً، ومَن كان عملُه أسوأ؛ كان بخلاف ذلكَ، وإن كان وجهُه أجملَ وجسدُهُ أحسنَ، فالحُسْنُ مُتعلِّق بالعمَلِ ومُؤَثِّر في الذّات[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 3، والآلوسي، روح المعاني: 8/ 198.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/ 1107.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 77.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

تكثير المعنى في سياق الابتلاء إشارة إلى الجزاء

في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ؛ إذ لم يُصرِّح بجزاء العمل، لكنْ دلَّ عليه السّياق، والمعنى: "ليبلوكم أيُّكم أحسن عملًا، أي: فيُثيبه، وأيُّكم أسوأُ عملًا، فيُعاقبه، فيجازيكُم على مراتبَ متفاوِتَةٍ حسَب تفاوُتِ طبقاتِ عُلومِكُم وأعمالكم"[1]، وقد دلَّ على هذا المعنى المحذوفِ ما خُتِمَت به الآية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾؛ إذْ تُشير إلى الجمع بين الجزاءِ بالعِزَّة لِمَنِ استحَقَّ العقاب، والمغفرة لمَنْ تابَ، وأحسَنَ.

دلالةُ تقديمِ أفعلِ التَّفضيل ﴿أَحْسَنُ﴾ على التَّمييز ﴿عَمَلًا﴾:

ما حسَّنه الشَّرع؛ فهو الحسن، وما قبَّحه؛ فهو القبيح

في تقديم ﴿أَحْسَنُ﴾ على ﴿عَمَلًا﴾ دلالَةٌ على أنَّ مقياس الحُسن في ﴿أَحْسَنُ﴾، أو التَّفاضل فيه، إنَّما هو باعتبارِ الخالِق، ولذلك قالوا: إنَّ الحُسن إنَّما يُدرَك بالشَّرع لا بالعقل، وما لم يرد فيه نَصٌّ؛ يُدركُ بالقياس على الشَّرع، ويُفهَم من العقل أيضًا، فما حسَّنه الشَّرع؛ فهو الحسنُ، وما قبَّحه؛ فهو القبيح[2]، وهذا فيما يترتَّب عليه الثَّوابُ والعقابُ، وإلّا فإنَّ اللّهَ تعالى أودعَ في العقولِ معرفةً بالحَسَنِ والقبيحِ، إلّا أنَّ هذه المعرفةَ المجرَّدة لا تستلزِمُ الثَّوابَ والعقابَ، وإنَّما مرجِعُ ذلك إلى الشَّرع وحدَهُ.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾:

التَّشريك في الحُكْم السّابق والتَّعليل له

وُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لإرادَةِ التَّشريك في الحُكْم والتَّعليل له، كأنَّه لمّا قال: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وكان قبلَ ذلك مَلِكًا قديرًا أخبَر أنَّه مالِكٌ ومَلِكٌ، وقادِرٌ وقديرٌ، قيلَ: هَل يَقدِرُ بعد البلاء على الحساب؟ قال: نَعَم؛ لأنَّه عزيزٌ لا يُغالَب، فيأخذ مَن هو أسوأ عملًا، وغفورٌ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 76، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 230.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 77، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 15.

لا يؤاخِذُ، فيأخذ مَن هو أحسَنُ عملًا بالمغفرة، فيما قَصَّر فيه من العمل، هذا على الوصلِ.

إتْباعُ الثَّناء على الله تعالى بثناءٍ آخَرَ

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ ثناءٌ آخر على الله ﷻ، يُبيِّن فيه ربُّنا أنَّه العزيز الذي لا يُغالَب، فهو الذي يَنْفذُ أمرُه، ولا يُردُّ قضاؤه، وهو أيضًا الغفور، واسعُ المغفرة، يغفرُ للتّائبين مهما عظُمت ذنوبُهم[1].

بلاغةُ تعريفِ الطَّرفين في المبتدأِ والخبَرِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾:

إثبات التَّفرُّد الكامل لله تعالى في عِزَّته ومغفرته

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ جاء التَّعريف في طرفي الجملةِ - المبتدأ والخبر - لإفادة القَصْرِ، أي: هو وحدَهُ العزيزُ الغفورُ، وهو المُختصُّ بالعِزَّة الكاملةِ والمغفرة الواسعةِ.

سِرُّ التَّعبير بصفة (فعيل) في ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾:

الدَّلالة على العزَّةِ البالغة التي لا تُضاهى، الدّائمة التي لا تَزولُ

في التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على صيغة (فعيل) سرٌّ بلاغيٌّ بديع؛ إذ يَحْتَمِلُ أن تكون الصّيغة دالَّةً على المُبالغَةِ، أي: هوَ شديدُ العزَّة، الذي لا يُغالَب، ولا يُقهَر[2]، ويحتمل أن تكون (فعيل) صفةً مشبَّهة باسم الفاعل، فتدلُّ على الثَّبات والدَّوام، أي: الذي هو عزيزٌ في ذاته، لا تنفكُّ عنه العزَّة أبدًا، والجمع بين هذين المَعنَيَين يدلُّ على العزَّةِ البالغة الَّتي لا تُضاهى، الدّائمة التي لا تزول، وهي من خَصائِص ربوبيَّة الله ﷻ.

مناسبة اختيار الاسمَين الجَليلَين في هذا المقامِ:

تناسُبُ فواصلِ الآي مَع مَضامينِها

جاء خِتامُ الآيةِ بذِكْرِ اسمَيه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، على نحوٍ يُناسِبُ سياقَ الابتلاء والجزاء، فـ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يدلُّ على القَهّار الغالب الذي لا يُعجزه شيءٌ، وهو أنسَبُ ما يُذكر عند الحديث عن جزاءِ مَن أعرض، أو عصى، كالمشركين الذين شَمِلَهُم الخطابُ في

(1) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 394.

(2) النَّسفي، التيسير: 14/ 504، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 15.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، فجاء ذِكْرُ العِزَّة ليُفْهَمَ أنَّ العقوبةَ واقعَةٌ لا محالةَ لِمَنْ خالَفَ، أمّا ﴿ٱلْغَفُورُ﴾؛ فهو الاسْمُ المناسب لجانِب الرَّحمة والثَّواب؛ كنايةً عَن جزاءِ الطّائعين والمُحسنين؛ إذ يَغْفِرُ زَلّاتِهم، ويُكرمهم على طاعتهم[1]، وجَمْعُ هذَيْنِ الاسمين في السّياق يتضمَّن كمالَ عِلْمِ اللّهِ تعالى وقدرته، وأنَّه سُبْحانَهُ مطَّلع على أعمالِ العِباد، قادِرٌ على مُجازاتِهم بالعَدْلِ والإحْسان، بحَسَبِ ما يَستَحِقّون.

دلالةُ (أل) في الاسمَينِ الجَليلَين:

(أل) في اسمي ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلْغَفُورُ﴾ الواردين في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، إمّا لبيان الجنس، أي: هو صاحِبُ جنس العزَّة والمغفرة، فيُعِزُّ من يشاء، ويغفِرُ لمن يشاءُ، ويجوز أن تكونَ لاستغراق الأفراد الَّذين تتعلَّق بهما الصِّفتان، كأنَّه قال: هو الذي يغفر لكلِّ مغفورٍ له، وهو الذي يُعِزُّ كُلَّ عزيز، ويُذِلُّ كلَّ ذليل، إلّا أنَّ الأوضح أن تكون اللّام فيهما للجنس، وأمّا على كونِها للاستغراقِ؛ فَلِشُمول الأفراد الَّذين تتعلَّق بهم العزَّة إيجابًا أو سَلْبًا، إيجابًا بِتحقُّق العزَّة فيهم، وسَلْبًا بغَلابَتِهم، وكذلك الشَّأنُ في الَّذين تتعلَّق بهم المغفرةُ.

اللـه تعالى صاحبُ العزَّة والمغفرة، يُعزُّ مَن يشاء، ويغفِرُ لِمَنْ يشاءُ

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلْغَفُورُ﴾:

قُدِّمَ العزيز على الغفور؛ لأنَّ وصْفَ العزَّةِ يَتعلَّق بكلِّ الخلق، بخلاف وصف المغفرة؛ فإنَّها لا تتعلَّق إلّا بِمَنْ يُذْنِب، وهُمُ العبادُ المكلَّفونَ الَّذين يُذْنِبون، فقُدِّم الوصفُ الأعمُّ من جهةِ متعلَّقاتها على الوصفِ، الذي هو دون ذلك في العموم، فاللّهُ تعالى هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِبُ الَّذي لا يُعْجِزُه مَن أساء العمل، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ السِّتِّيرُ الذي لا يَيْأسُ مِنْهُ أهلُ الإساءة والزَّلل[2].

صفةُ العزيز تتعلَّق بِكُلِّ الخَلْق، والغفور تتعلَّق بالعبادِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 16.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 92.

ومِنْ فوائدِ تقديم العَزيز على الغفورِ أمرانِ آخرانِ:

في الموت والعزَّة شِـــدَّة، وفي الحياة والمغفرة لينٌ ولُطْفٌ

أحدهما: مُناسبة تقديم الموتِ على الحياة، ففي كلٍّ مِن الموتِ والعِزَّةِ شِدَّة، وفي كلٍّ مِن الحياة والمغفرة لينٌ، فقُدِّم الموت الذي هو أثرُ صِفَةِ القَهْرِ على الحياة التي هي أثر صفة اللُّطف، فقُدِّم وصفُ القَهْرِ على وصفِ اللُّطْف[1].

ثانيهما: في هذا التَّقديم زيادةُ تهويلٍ وترغيب، فَإنَّه لَمّا كان الخطابُ في ذلك الوقت لعامَّة المُشركين؛ قُدِّم ما يُناسب الكُفّار، وهو العِزَّة على ما يُناسب أهلَ الإيمان، وهو المغفرة، وإنْ لوحِظَ معنى العِزَّة في كِلا الفريقين ومعنى المغفرة في كِلا الفريقين، لكِنْ لَمّا كان الغالب على مُناسبة الكُفْرِ العزَّة، وكان الغالبُ على مُناسبة الإيمان وحسن العمل المغفرة؛ قُدِّم عِزُّ العزيز على الغفور؛ ليُناسب الغالب الموجودَ؛ إذْ إنَّ أهل الكُفْر هم الأكثرون وأهلَ الإيمان هُمُ الأقلّون، فما الحالُ إذا ذُكِرَ أهلُ أحْسَنِ العمل من أهل عموم الإيمان؟ فَهُم أقلُّ القليلِ.

بلاغة التَّذييل بِذِكْرِ الاسمين الجليلين:

القصدُ من التَّذْييلِ الإتيانُ بالدَّليل على الحكم

قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ جُملةٌ تَذْييليَّة، والقصد من التَّذْييلِ الإتيانُ بالدَّليل على الحكم، فلَمّا كان اللهُ تعالى يختبر النّاس، ويمتَحِنُهم بخَلْقِ الموت والحياة أيُّهم أحسن عَمَلًا؛ كان لا بُدَّ، وأن يُجازيَهُم، فبيَّن دليلَ ذلك، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، فذَكَرَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الجزاء الَّذي يترتَّب على الابتلاءِ هوَ جزاء المُهَيْمِن القويِّ الَّذي لا يُعجزه شيءٌ، وهو أنسَبُ ما يُقال في مقام الوعيدِ لمن خالَفَ، وعصى، وهذا حالُ المشركين الذين شَمِلَهُم ضَميرُ الخِطاب. وذكر ﴿ٱلْغَفُورُ﴾، وهو المناسِبُ لجانبِ الرَّحمة

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 92.

والمغفرة؛ كنايةً عَن جزاءِ الطّائعين والمُحْسِنين، الذين يَقَعُ مِنْهُمُ التَّقصير أحيانًا، فيَغْفِرُه اللّهُ تَعالى، ويُكْرِمُهُم بِإحْسانِه، كما قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 82] – فكان هذا ختامًا جامعًا لحظِّ الفَريقَيْنِ: العُصاة والمحسنين؛ تنبيهًا إلى كمال عدلِ اللّه تعالى ورحمته[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

الابتلاء تكليفٌ بأمر شاقٍّ خيرًا كانَ أو شرًّا، والاختبارُ وقوعُ المُخْبَر بحالِهِ

ذهَبَ بَعْضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ الابتلاء بمعنى: الاختبار، مع أنَّ النّاظر في اللَّفظين يجدُ بينَهُما فرقًا دقيقًا، وإن اشتَرَكا في المعنى العامِّ؛ فلكلِّ لفظٍ مِنْهُما ما يميِّزه، فالابتلاءُ: التَّكليف في الأمر الشّاقِّ، ويكون في الخَيْرِ والشَّرِّ معًا، أمّا الاختبارُ؛ فمعناه: أيُّ مَحَكٍّ يُمْكِنُ استخدامُه بهدفِ تحقيق حقائقَ مُعيَّنة، أو تحديد معايير الصَّواب، سواءٌ أكانَ ذلك في قضيَّة معروضة للبحثِ والنَّظَرِ أو لغرضٍ مُعلَّق لَم يَتمَّ التَّثبُّت منه، وعلى هذا؛ فالابتلاء يقتضي استخراجَ ما عند المُبْتَلى مِن الطّاعة والمعصيةِ، والاختبارُ: وُقوع المُخبَر بحالِه في ذلك، وهو أصلٌ مِن أصول الابتلاء[2].

الابتلاء والفِتْنَة:

الابتلاء تكليفٌ بالمكارهِ، والفِتْنَةُ شِدَّةُ الابتلاء

الابتلاء التكليف في الأمر الشّاقِّ من البلاء[3]؛ لاستخراج ما عِنْد المُبْتَلى وتَعَرُّفِ حاله في الطّاعَة والمَعْصيَة بتحميله المَشَقَّة، فالابتِلاء لا يكون إلّا بتحميلِ المكاره والمشاقِّ[4].

وأمّا الفِتْنَةُ؛ فهي البليَّة وبها يَتبيَّن حالُ الإنسان من خيرٍ أو شَرٍّ[5]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 15، 16.
(2) الزَّهراني، التَّفسير الموضوعي: 1/ 139.
(3) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيات، ص: 34، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 216.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 216.
(5) زين الدّين المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 256.

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، وهي في الشِّدَّة أظهَرُ مَعْنًى، وأكثرُ استعمالًا، والفتنةُ مِنَ الأفعال التي تكون من الله تعالى ومِنَ العبدِ، كالبَلِيَّة والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك[1]، فيدور معناها بينَ الابتلاءِ إيقاعًا أو تعريضًا للبلاءِ[2].

فالفِتْنَة أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وتكون في الخَيْر والشَّرِّ، وقد قالَ تَعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجنُّ: 16 - 17]، فَجَعَلَ النِّعْمَة فتْنَةً؛ لأنَّهُ قُصِدَ بها المُبالغَة في اختبار المُنعم عَلَيهِ بها[3].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فتن).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 217.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"